الزلازل في سنكسار الكنيسة الأرثوذكسية

المتروبوليت بييروثيوس فلاخوس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

تتكرر الزلازل والهزات الأرضية في منطقة البحر المتوسط، منها الصغير وهو الأكثر تكراراً، ومنها الكبير كالذي شهدته أثينا في أوائل أيلول ١٩٩٩، وشعرت به أجزاء أخرى من اليونان وتركيا والدول القريبة، وعدد غيرها من الهزات في تركيا، انتهاءً بالزلزال الأخير الذي ضرب أرض أنطاكية (سوريا المحتلة) وبلغت آثاره الرهيبة تركيا وقبرص وسوريا ولبنان وفلسطين، حيث اهتزت الأرض لأيام كاملة هازةً في الوقت نفسه قلوب الناس. خلال الزلازل، نرى معاناة البشر من فقدان الأحباء ونتعاطف معهم. آخرون يفقدون جميع ممتلكاتهم التي عملوا من أجلها بلا كلل طوال حياتهم. ومع ذلك، تتاح لنا الفرصة لرؤية بطولة رجال الإنقاذ الذين يدخلون في الحطام لاستعادة الأرواح، بالإضافة إلى الاهتمام الذي يظهر في التعاطف مع الآخرين لتقديم مختلف المساعدات. هذه الخبرة ليست جديدة على الكنيسة كونها غير جديدة على البشرية. من هنا هذا المقال القديم الذي يُظهِر جزءً مهماً من فهم الكنيسة للظواهر الطبيعية المؤلمة وتعاطيها معها، مما يساعد المؤمنين، إلى حد كبير، على تحديد الموقف الإيماني بدقة أفضل ومن دون أن يقعوا في أوهام أو مبالغات الشرير الذي يهمه كثيراً أن يزرع الرعب واليأس في قلوب الناس [المترجم].

لطالما كانت هناك زلازل في حياة الناس في جميع الفترات التاريخية. يحتفظ التاريخ بذكريات الزلازل المدمرة التي كانت لها عواقب وخيمة على البشر والأشياء الأخرى. في سنكسار الكنيسة، الذي يُقرأ يومياً في خدمة السحر، ترِد ذكريات محفوظة عن مثل هذه الزلازل الرهيبة. إن ورودها في السنكسار هو تعبير عن الامتنان لله لخلاص الناس، كما أنه يظهِر فرصة للطلب منه عدم السماح بتكرار مثل هذه الآثار المدمرة.

الطيب الذكر المتقدم في الكهنة الأب يوحنا رامفوس، يشير في دراسة بعنوان "ذكريات الزلازل" إلى الزلازل التي وصل إلينا ذكرها في سنكسار الكنيسة. حيث يورِد في ختام الدراسة خدمةً خاصة من تأليف الطيب الذكر كاتب التسابيح في كنيسة المسيح الكبرى الراهب [القديس] جيراسيموس ميكراغيانانيتيس. هذه الخدمة بعنوان: "الدعاء والشكر لإحياء ذكرى الزلزال الذي وقع عام ١٩٥٣ في جزر كيفالونيا وزاكينثوس وإيثاكا الأيونية". تُقام هذه الخدمة في ١١ آب.

من ثم أود أن أذكر الزلازل المذكورة في الميناون الكنسي:

١. وقع زلزالان يوم ٢٥ أيلول ("إحياءً لذكرى الزلزال العظيم، حيث حدث في ذلك الوقت اختطاف طفل في الهواء") و ٢٦ كانون الثاني ("إحياءً لذكرى الزلزال العظيم"). يرى البعض أن هذا كان زلزالًا واحدًا بدأ في ٢٥ أيلول وانتهى في ٢٦ كانون الثاني، لكن الأب الراحل يوحنا رامفوس يقول إنهما كانا زلزالين، استمر الأول (٢٥ أيلول) لمدة أربعة أشهر والثاني (٢٦ كانون الثاني) لمدة ثلاثة أشهر، وبالتالي كان هناك زلزالان كبيران مع ارتداداتهما. وقع الأول في بداية عهد ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠) والثاني في نهاية عهده.

يحفظ المؤرخ ثيوفانيس المعلومات التي تفيد بأن البيزنطيين كانوا خائفين جداً من زلزال ٢٥ أيلول حتى أنهم غادروا المدينة "وصلوا لله ليلاً ونهاراً مع الأسقف مبتهلين". وبالفعل خلال الطلبة "بينما كانت الأرض تهتز وكل الناس يصرخون' يارب ارحم' خُطف طفل في الهواء حيث سَمِع صوتاً إلهياً يأمره بأن يعلن للأسقف والناس أن يرددوا ترنيمة 'قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، ارحمنا'، بدون أي إضافات. لأن بعض الهراطقة الثيوباسخيتيين [١] أضافوا عبارة "الذي صُلب لأجلنا"، أمر البطريرك بروكلس والإمبراطورة بوليخاريا بترديد هذه الترنيمة بدون الإضافة وأدخلوا الترنيمة إلى جميع أنحاء الإمبراطورية.
خلال الزلزال الذي وقع في ٢٦ كانون الثاني، انهارت أسوار القسطنطينية، بالإضافة إلى أجزاء كثيرة من المدينة والعديد من المنازل، بالإضافة إلى "ميناء ترواس وتترابيلون البرونزي".

٢. زلزال ٧ تشرين الأول عام ٥٢٤ تحت حكم الإمبراطور يوستنيانوس الأول. يرِد في السنكسار "تخليداً لذكرى الرحمة المستمرة تجاهنا أمام التهديد الرهيب للزلزال العظيم".
٣. زلزال ٢٦ تشرين الأول عام ٧٤٠. وقد استمر هذا الزلزال أحد عشر أو اثني عشر شهراً. يكتب المؤرخ ثيوفانيس: "هُدمت الكنائس والأديرة ومات كثير من الناس". سقط العديد من التماثيل "جنباً إلى جنب مع الأسوار الأرضية للمدينة بالإضافة إلى العديد من المدن والقرى في تراقيا ونيكوميديا في بيثينيا وبراينتوس ونيقية، حيث نجت كنيسة واحدة فقط." في الواقع، لوحظ تغيير في حدود البحر في بعض الأماكن.
في ذكرى هذا الزلزال العظيم والرهيب، كتب القديس يوسف كاتب الترانيم في الكنيسة خدمة خاصة تم إنشادها في ٢٦ تشرين الأول، إلى جانب خدمة القديس ديمتريوس المحفوظة حتى يومنا هذا.
٤. زلزال ١٤ كانون الأول عام ٥٥٧. وهو مكتوب في سينكساريون الكنيسة: "تخليداً لذكرى الإحسان المتواصل تجاهنا أمام خطر الزلزال الرهيب، الذي فدانا منه الرب المحسن ".
كان هذا زلزالاً مروعاً دام عشرة أيام. يقول المؤرخ ثيوفانيس أن سوري القسطنطينية تعرضا لأضرار جسيمة، والعديد من الكنائس سقطت مع المذابح ومظلاتها، وتهدّمت مناطق بأكملها، ولهذا كتب: "لم يكن هناك مكان أو ضاحية لم تسقط من خطر الزلزال الرهيب". كان الزلزال عظيماً ومروعاً "حتى أن أحداً من هذا الجيل على وجه الأرض سينساه". الإمبراطور يوستنيانوس الأول "لم يلبس تاجه لمدة أربعين يوماً، وفي عيد الميلاد المقدس دخل الكنيسة بدونه (التاج)". يقول كيدرينوس أنه دخل أيضاً أثناء الاحتفال بالظهور من دون تاج. يبدو أن هذه كانت كارثة كبيرة وكان هناك العديد من الضحايا.
٥. زلزال ٩ كانون الثاني من عام ٨٧٠ في بداية عهد باسيليوس الأول وقد استمر أربعين يوماً. أي أن ارتدادات الزلزال استمرت أربعين يوماً. يصفه المؤرخ نيكيتاس بافلاغون بأنه "الأكثر فظاعة" ويقول إنه تدمّرت العديد من الكنائس والمنازل والمعارض "مع الوحوش الأسطورية والأشخاص الذين سُحِقوا"، وكانت كنيسة أيّا صوفيا معرضة لخطر الانهيار لو لم يكن قد عززها الحكام.
٦. زلزال ١٧ آذار من عام ٧٩٠ في عهد الإمبراطور قسطنطين.

٧. الزلزال الذي وقع في ١٦ آب عام ٥٤٢. في الواقع، يتحدث المؤرخان جدعون وُيوفانيس في وصفهما عن زلزال رهيب جرى خلاله سقوط كنائس ومنازل وأسوار القسطنطينية و"مات الكثير من الناس وكان هناك خوف كبير." استمر هذا الزلزال أربعين يوماً. يكتب ثيوفانيس: "وكان كثير من الناس في حزن وهم يتعاملون ويجلسون ويعيشون في الكنائس ، وعلى الرغم من أن إحسان الله قد حدث، إلا أن الأمور ساءت".

***

إن المعلومات التي جمعها الراحل الأب يوحنا رامفوس مهمة جداً وتمنحنا الفرصة لإبداء الملاحظات التالية، والتي ترتبط بالطبع بزلازلنا المعاصرة.

أ. الكنيسة تذكّر المؤمنين كل عام بأيام الزلازل الرهيبة التي ذكرناها، لكي يشكر المؤمنون الله على خلاص الناجين، ومن جهة أخرى لكي يتضرعوا إلى الله من أجل النفوس المقتولة، وكي لا يسمح الله مرة أخرى لمثل هذه الزلازل الرهيبة بالحدوث.

ب- لطالما أثّرت الزلازل على حياة الناس وكان لها بالطبع آثار سلبية وإيجابية.

يحلل البروفيسور فاسيليوس بابازاخوس، في مقال قديم، النظريات المعاصرة حول الزلازل، والتي تقول بأنه اعتماداً على الحركات، أي تباعد أو تقارب الصفائح التكتونية، تتمدد أو تنضغط الحجارة الموجودة على حدود هذه الصفائح، مما يؤدي إلى كسرها وبالتالي تنشأ الصدوع، والتي حسب طولها، تتسبب في حجم الزلزال. ثم يقول: "الزلازل جزء من العملية الطبيعية لتكوين الأرض وتطورها. إنها العملية التي خلقت الجبال والغابات والسهول الخصبة والبحار الجميلة والثروة المعدنية. وبالتالي فإن الزلازل هي مظاهر تطرف نشاط الأرض التكتوني (حيوية الأرض) على الرغم من ندرة هذا النشاط في الكون، وهو ما يجعلها مضيافة جداً للإنسان. لا يمكن تغيير هذه العملية ولا من مصلحتنا تغييرها. لذلك، إن نشأة الزلازل وظهور الإنسان على الأرض لهما نفس السبب. ولهذا علينا أن نتعلم كيف نتعايش مع الزلازل ونبحث باستمرار عن طرق أفضل للحد من العواقب السلبية".

كمسيحيين، ومن دون إنكار آراء العلماء هذه، نقبل أن كل هذه الظواهر الجيولوجية (المطر والرياح والبرد) وما شابه ذلك، تتم في إطار قوى الله الخلاقة والحاكمة والخلاصية، وهو الذي يتدخل عند الضرورة من أجل الحفاظ على الحياة البيولوجية ومن أجل خلاص الناس.

ج. الزلازل، بحسب سنكسار الكنيسة، مرتبطة بإحسان الله ورحمته. هذا هو سبب كتابته: "لتذكار الإحسان المستمر تجاهنا أمام تهديد الزلزال الرهيب" ، وفي مكان آخر "لتذكار الرأفة التي أظهرها لنا في أيام تهديد الزلزال الرهيب". لا يمكننا أن نلج إلى الغرض من العناية الإلهية وأن نتحرى سبب أن الله يسمح بحدوث الزلازل ويمنّ بها، كما يقول المزمور: "إنه يمس الأرض فيجعلها ترتعد". ومع ذلك، من خلال الزلازل، تحدث هزّات أخرى، روحية وخلاصية، يتم فيها إنقاذ الناس بطرق مختلفة بإحسان من الله.

د. عرف مسيحيو تلك الحقبة كيفية التعامل مع كل قضية، حتى الزلازل، بالاهتمام المناسب والعقلية الكنسية. منذ البداية باشروا مسيرة مع صلوات. خلال الطلبات، كما رأينا، كانت هناك أيضاً أحداث معجزة، مثل اختطاف

الطفل وتبني التسبيح المثلث التقديس الأرثوذكسي. هذا هو سبب وجود الطروباريات والقوانين والأدعية والصلوات لحالات الزلازل.

باستثناء حالات قليلة، كما ظهر في التلفاز، عندما شكر الناجون الله، لم نشاهد ابتهالات ولا أدعية، والتي أُقيمَت لم تعتبر جيدة بما يكفي لعرضها في وسائل الإعلام. هذا الأمر يوضح الاختلاف في عقلية الناس في ذلك الوقت وما هم عليه اليوم.

هـ. تظهِر الزلازل وطريقة التعامل معها حقيقة أخرى. يخبرنا المؤرخون أن الناس أثناء الزلازل حزنوا وصلوا وتابوا، ولكن "على الرغم من إحسان الله، إلا أن الأمور ساءت"، مما يعني أن الله بإحسانه سبّب توقف الزلازل، لكن الناس لم يعودوا إلى حياتهم السابقة في الخطيئة وحسب، بل عملوا ما هو أسوأ. هذا يدلّ على تقلب الإنسان والنفعية التي يظهرها في ظروف الحياة المختلفة.

***

فلنسأل الله أن يعفينا من الزلازل أو يقيِّدها وأن يتدخل عجائبياً، وأن نتجاوز الخوف من الموت لأن هذا الخوف يخلق الذعر واليأس وعواقبهما. فلنسأل الله أن يرحم أرواح الذين ماتوا تحت أنقاض الأبنية المهدمة، وأن يحلّي بالشجاعة الذين يعانون وأن تُداوى جراحهم على وجه السرعة. لنطلب من الله أيضاً أن ينير المهندسين ليقوموا بعملهم جيداً، وأن يمنح أيضاً حسناته الروحية الصالحة للذين كانت حياتهم في خطر عندما ساعدوا وأنقذوا بطرق مختلفة إخوتنا المتألمين.

"أيضاً نطلب من أجل حفظ هذه المدينة وسائر المدن والقرى، من الجوع والوباء والزلازل والغرق والحريق والسيف، ومن غارات القبائل الغريبة والحروب الأهلية والموت الفجائي، ومن أجل أن يكون لنا إلهنا الصالح والمحب البشر، شفوقاً ورؤوفاً ومتعطفاً ليصرف ويُبعد عنا كل سخط يثور علينا وينقذنا من وعيده العادل ويرحمنا".

Source: Μητροπολίτου Ναυπάκτου και Αγίου Βλασίου Ιεροθέου. "Σεισμοι Στα Συναξαρια Της Εκκλησιας", Εκκλησιατικη Παρεμβαση, Τεῦχος 44 - Σεπτέμβριος 1999, 06 Σεπτεμβρίου 1999, https://parembasis.gr/index.php/el/menu-teyxos-44/3611-1999-44-01

[١] الثيوباسخيتية هي الإيمان بأن الإله يمكن أن يتألم. بسبب الجدل حول آلام يسوع وألوهيته، نوقشت هذه العقيدة في المجامع المسكونية التي أكدت صيغة التسبيح المثلث التقديس، لكن بعض أتباع المشيئة الواحدة في أنطاكيا، من بعد مجمع خلقيدونية، أضافوا إلى ترنيمة "قدوس الله" عبارة "الذي صلب لأجلنا"، ما فاقم الوضع في الشرق المسيحي واستدعى إدانة مجمعية لهذه الإضافة وتثبيتاً للصيغة كما وصلتنا ونرددها.